تراثُنا التربوي والاقتصادي

تحقيق وترجمة كميل عيد - ميلانو

بيروت قبل ١٣٠ سنة بِعَينٍ إِيطالية

بيروت قبل ١٣٠ سنة
بِعَينٍ إِيطالية

تحقيق وترجمة
كميل عيد – ميلانو

بين الصحف والوثائق الإيطاليّة القديمة، مجلّة Geografia per tutti («الجغرافيا للجميع»)، كانت تصدر كل أسبوعين، وعلى غلافها أنها تُعنى بـ«نشر المعارف الجغرافية». وفي عدد منها سنة ١٨٩٣، وفي باب «من هنا وهناك حول العالَم»، مقال عنوانه «بيروت ومدارسها»، ذو مقدمة تَذكر أن معلوماته مقتَبَسَة من كرّاس «المصالح الإيطاليّة في المشرق، وخاصّة في سوريا»، وضعه الباحث في شؤون المشرق لويجي بافيا Luigi Pavia، أملاً أن المعلومات فيه «ستحوز على اهتمام القرّاء».



غلاف المجلة سنة ١٨٩٣

تتصدّر المقال صورة منظر لبيروت لم تذكر المجلّة مصدره ولا تاريخه، لكنّه شبيه جدًّا برسم عن عاصمتنا صدر في منشور رحلات Rip van Winkle عام ١٨٨٢. ويصف كاتب المقال موضوعيًّا دور بيروت التربويّ كما بدأت تُبرزه فترتئذٍ ويعدِّد أَهمّ المدارس فيها، دافعًا بلاده إيطاليا إلى استدراك ضحالة حضورها التربويّ حيال حضور دول غربيّة أخرى في مدينةٍ «تشهد ازدهارًا مطّردًا على كافّة الصُعُد».



غلاف المجلة حديثًا

وهنا ترجمة المقال كاملاً عن أصله الإيطالي:

«على شواطئ فينيقيا، في منتصف الساحل الممتدّ من مصر إلى آسيا الصغرى، مدينةٌ تزدهر كلّ يوم أَكثر، عددُ سكّانها في أقلّ من ٣٠ سنة ارتفع من ٢٥ ألف نسمة إلى ١٢٠ ألفًا. وهي مركزٌ رئيس للتجارة والبناء والمكاتب المهنيّة، وباتت موقعًا يتدفّق إليه كلّ شيء من المناطق المحاذية أو الداخليّة. وهي قريبًا ستفوق دمشق اقتصاديًّا واجتماعيًا ودوليًّا رغم عراقة دمشق التاريخية وشهرتِها وسكانِّها من ٢٥٠ ألف نسمة. هذه المدينة هي بيروت. وهي لغير سببٍ تحتلّ على تلك السواحل، وحتّى البحر الأسود، منزلة ميلانو في إيطالياً. فللتعليم فيها مدارس مزدهرة جدًّا، منها «المدرسة الإعداديّة التركية» (يسمِّيها كاتب المقال I'dadi) مع كليّة تابعة لها. وإنني، بتردُّدي اليومي عليها لصداقتي مع مديرها، أشهد على مستواها الراقي في تنسيق نشاطاتها واختيار هيئة التدريس فيها بعناية. وثمة مدرستان مسيحيّتان عاليتا المستوى، إحداهما تتبع لبطريركيّة الروم الكاثوليك، والأخرى للمطران المارونيّ الدبس[1]، وهما معهدان سوريّان يضاهيان الكثير من معاهدنا. هذه المدارس الثلاث تحضنها مبانٍ كبيرة جميلة، ويرتادها تلامذة كثُر من كلّ أمّة ودين. ولاحظت فيها انضباطًا تامًّا وأعلى درجات النظام.

وفي بيروت نحو خمسين مدرسة غير محلّيّة، أسّسها أوروبيّون وأميركيّون. بعضها ليس لديه ما يحسده على أفضل مدارسنا، يملك مباني رائعة وشاسعة ومريحة تنافس أفضل المباني الدراسيّة في أوروبّا.

منها: الجامعة الأميركيّة، في رأس بيروت، مع كلّية طبّ ولاهوت ومدارس صغرى، ومتحف للتاريخ الطبيعيّ ومطبعة دار نشر نشيطة (قرب المدينة القديمة) تنافس بين ١٠ و١٢ مطبعة تابعة لعدد مماثل من الصحف.

ومنها جامعة اليسوعيين الفرنسيّة، تضمّ كليّة طبّ فاقت نظيرتها في المدّة الأخيرة، وتُلحق بها مدارس أدنى بين ثانويّة ومهنيّة وصفوف ابتدائيّة ومدرسة داخليّة. يبلغ عدد المداومين فيها نحو ١٥٠٠. وللآباء اليسوعيّين، قرب مدارسهم إنما بإدارة مستقلة، مطبعة دار نشر كبرى تُصدر مؤلّفات قيّمة تهتمّ خاصّة بتدريس اللغات والآداب العربيّة للفرنسيّين وتلك الفرنسيّة للعرب؛ ومجمّع مباني اليسوعيّين يمتد على مساحة تفوق مساحة القصر الملكيّ في ميلانو. وكذلك يبدو كالقصر معهدُ راهبات الناصرة،

١) هو المطران يوسف الدبس، راعي أبرشيّة بيروت المارونية من ١٨٧٢ إلى ١٩٠٧، وهو صاحب موسوعة «تاريخ سوريا الدنيويّ والدينيّ» ومؤسّس مدرسة «الحكمة» وكاتدرائيّة القديس جرجس (المترجم).

وهنّ أيضًا من فرنسا، ويُشرف على بيروت من تلّة شرقيَّ المدينة، يضمّ نحو ٥٠٠ طالبة تقريبًا. وثمة أيضًا مدرسة الإخوة المسيحيين [الفرير] ومدرسة اللعازاريّين، وكلتاهما فرنسيّة.

وفي أنحاء المدينة أيضًا نحو ١٢ مدرسة راقية تابعة للإرسالية الإنكليزية (British Syrian Schools)، بينها مدرسة رئيسيّة، ومدارس كثيرة للصبيان والبنات تابعة للإرساليّة الاسكتلنديّة، ومعهد مزدهر للراهبات البروسيّات تلحق به دارٌ للأيتام، ومعهد تربويّ مع ميتم ومستشفى لراهبات المحبّة الفرنسيّات. وأشيح الآن عن مدارسَ أخرى كثيرةٍ بروتستانتية وكاثوليكيّة وأرثوذكسيّة وعربيّة (مارونيّة) ويهوديّة وأرمنيّة وتركيّة[٢]، كما عن المستشفى الفرنسيّ[٣] في رأس بيروت والمستوصفات والصيدليّات الفرنسية والألمانيّة، وأوجز فأقول إن في بيروت مدرسة عند كلّ خطوة، وهي مدارس جيّدة، حسنة التنظيم، كاملة التجهيز، يرتادها جمعٌ غفير. وبسبب هذا التدفّق المستمرّ والقويّ للمصالح والأشخاص من كلّ أنحاء المشرق، وبفضل لقب «المدينة المثقّفة» الذي حازت عليه بيروت حاجبةً مجدَ القاهرة، تضاعف عدد المدارس واجتذبت أعدادًا غفيرة من الطلاب وهي تحافظ على مظهرها ورونقها.



المدرسة القيصرية في بيروت نحو ١٨٩٣

٢) تضمّ ولاية بيروت ٣٨١ مدرسة محليّة، بينها ٥٧ في بيروت وحدها، استنادًا إلى البيانات الرسميّة في شباط ١٨٩٣، أي عند إرسال هذا المقال إلى الطباعة (ملاحظة كاتب المقال).

٣) المستشفيات مدفوعة الأجر، يتنافس فيها أطبّاء أوروبيين وأميركان لبلوغ النجاح والتقدير. وقبلاً خدم أطباء إيطاليون في أماكن عدّة لدى الحكومة التركيّة، لكنّ الأطبّاء الفرنسيين والألمان حلّوا مكانهم ولم يبقَ منهم إلا الطبيب الإيطالي العجوز دي لوتشيانو De Luciano يمارس عمله في مكتب الحجر الصحيّ (الكرنتينا) في بيروت.

حيال كل ما ذكرتُه، ما الذي لنا نحن [الإيطاليين] في بيروت؟ مدرسة ابتدائيّة مجانية فقط، يرتادها نحو ٩٠ بالمئة من أبناء أكثر الأُسر بؤسًا[٤]، لذا يتجنبها أبناء الأسر الميسورة لتفادي الظهور بمظهر التعساء، ولأنّهم — إزاء فقدان مدرسة ثانويّة بعد الابتدائيّة — يفضلون بدء الدورات في مكان آخر للتمكّن من إنهائها. وقبل شهر كتب لي مواطن من بيروت: «في السنة المقبلة سأضطرّ إلى سحب بناتي من المدرسة الإيطاليّة وإلحاقهنّ بمدرسة أخرى، إذ يتابعن للمرّة الثانية الصفّ ذاته ووصلن إلى أعمدة هرقل[٥] حيث لا مجال للتقدّم أكثر». ووردت في رسالته عبارات استياء لغياب أيّ هيبة واعتبار لنا في تلك المناطق. وهو ليس الوحيد يكتب لي في هذا الموضوع. فالمدرسة الإيطاليّة القائمة منذ ٢٤ سنة، محاطة بأخواتٍ لها تصغُرها سنًّا تركنَها على مسافة ألف ميل إلى الخلف من حيث الأهمّيّة، ولم نقم بأيّ ما يرفع مستواها قليلاً، مع أنّ تقريرًا رسميًّا رُفع قبل خمس سنوات إلى الوزارة حول مدارسنا في الشرق، شكا بأن بيروت تفتقر إلى مدرسة ثانويّة. وجاء في ذاك التقرير: «بعد إعادة تنظيم التعليم الابتدائيّ سيكون ضروريًّا توفير مستوى تعليم ثانويّ أو تقنيّ أو تجاريّ أو صناعيّ، إذا شئنا ألاّ تتعرّض للنسيان لغتُنا التي ندرّسها في سنوات الطفولة».

هنا ينتهي اقتباس المقال في مجلّة «الجغرافيا للجميع»، لكنني عثرتُ على نسخة منه كاملة (٢٧ صفحة) وردت فيها معلومات أخرى عن تاريخ بيروت في تلك الحقبة، وبخاصّةٍ دورها الاقتصاديّ، وهنا جلُّ ما ورد فيه:

تقرير اقتصادي إيطالي عن بيروت عام ١٨٩٣

كانت بيروت مكان استيراد كبير من أوروبّا، وكلّ صنف من البضاعة يجد له فيها رواجًا عظيمًا، لكن البضائع الإيطاليّة «أقلّ من معدومة» في أسواق المدينة، والفرنسيّون «أكلوا البيضة والتقشيرة» في امتيازات الحكومة التركيّة.

المقاطع حول «بيروت ومدارسها» (مقتبَسة من كرّاس «المصالح الإيطاليّة في المشرق، وخاصّة في سوريا») قادتني إلى البحث عن الكرّاس بأكمله أملاً بالحصول على معلومات إضافيّة حول بيروت في

٤) يذكر صاحب المقال أنّ تلامذة المدرسة الإيطاليّة ٣٤٠، بينهم ٢٠ إيطاليًّا فقط، عشرة ذكور وعشر إناث، يكلّفون الدولة الإيطاليّة ٣٥ ألف فرنك سنويًّا (المترجم).

٥) هو مضيق جبل طارق، بمعنى «أقصى حدود المعمورة» والعلْم (المترجم).

نهاية القرن التاسع عشر. وبالفعل وجدتُها منشورةً على حلقتين في مجلّة «الفكر الإيطاليّ» الصادرة في ميلانو[٦]. يتطرّق الكرّاس الذي وضعه عام ١٨٩٣ الباحث لويجي بافيا Luigi Pavia في صفحاته السبع والعشرين إلى مواضيع وأماكن شتّى، اقتطعنا منها ما يتعلّق بمدينة بيروت خارج الإطار التربويّ الذي فصّلناه أعلاه.

جال ذاك الباحث في المشرق أشهرًا من ١٨٩٢. وكتب أن «الأمر لا يتعلّق بمقارعة النفوذ الفرنسيّ بل القيام بما يفيد كلّ جالياتنا المنتشرة في تلك البقاع، فنوفّر لإيطاليا علاقات مستقبليّة مع بلدان كانت تشكّل في الماضي مرتعًا غنيًّا لتجارتنا». هكذا يؤكّد أن دخول السوق البيروتيّة، ومن ورائها المشرقيّة، يبدأ بزيادة رحلات تقوم بها شركات الملاحة الإيطاليّة إلى موانئ شرقي المتوسّط. ويذكر أنّ ١٢ رحلة فقط انطلقت من إيطاليا إلى بيروت خلال ١٨٩٢، بينها سبع رحلات تابعة لشركة Cappellino الجنويّة، و١٩ رحلة قامت بها سفن شراعيّة إيطاليّة، وهو عددٌ «لا يساوي شيئًا حيال آلاف سفن ترسو في بيروت سنويًّا». ويُفصّل بافيا عدد الرحلات الشهريّة المنتظمة لشركات كبرى تستخدم مرفأ بيروت، فيذكر ٤ رحلات لشركة الملاحة الروسيّة، ومثلها لشركة Messageries الفرنسيّة، و٨ رحلات للشركة النمساويّة Lloyd، ومثلها للشركة الخديويّة، عدا رحلات متكرّرة غير منتظمة قامت بها شركة Fabre الفرنسيّة وشركات Papajanni و Asia Minor و Levant Line و Moss الإنكليزيّة، إلى رحلات أقلّ عددًا للبواخر الإسبانيّة والألمانيّة والأميركيّة. ويقترح بافيا إقناع الباخرتين الإيطاليّتين Gottardo و Indipendente اللتين تسيّران رحلات من بحر الأدرياتيك إلى ميناء الإسكندريّة بمتابعة سيرها إلى بورسعيد فموانئ يافا وحيفا وعكا الفلسطينيّة فبيروت وطرابلس وصولاً إلى الإسكندرونة ومرسين.



بيروت نحو ١٨٩٠ (مجموعة بدر الحاج)

٦) Il Pensiero Italiano الجزءان ٢٧ و٢٨ من المجلّد السابع، ميلانو ١٨٩٣.



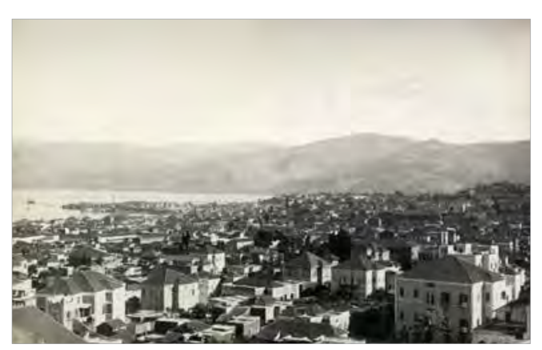
بيروت سنة ١٨٩٠ ويبدو برج الكلية السورية الإنجيلية
(الجامعة الأميركية) أعلى اليسار (مجموعة سهيل منيمنة)

وبين الموانئ التي ذكرها، تبقى بيروت محطّ أفكار الباحث: «أعود فأكرّر للفائدة: بيروت مكان استيراد كبير من أوروبّا، حتى للبلدان الداخليّة؛ وكلّ صنف من البضاعة يجد له فيها رواجًا عظيمًا، شريطة أن يكون سعره ملائمًا». ويستشهد بافيا بصديق له يسكن في بيروت أكّد له بحسرة أنّ البضائع الإيطاليّة «أقلّ من معدومة» في أسواق المدينة، وأنّه عبثًا حاول إقناع شركات من ميلانو وغيرها بتوفير وكالات تجاريّة لأحد الإيطاليّين المقيمين في بيروت، رغم الطلبات الكثيرة الآتية من بلاد المشرق على البضائع الإيطاليّة. ويذكر صديق بافيا في رسالته أنّ «بيروت، بحكم كونها عاصمة تلتقي فيها أسواق الساحل والداخل، تشهد طلبًا على كلّ أصناف البضائع وبكثرة». ويشدد مجدَّدًا على أنّ النجاح هو في القدرة على المنافسة. ويفصّل ذاك الإيطاليّ المقيم في بيروت ٥٧ صنفًا، إذا جيْءَ بها من إيطاليا، تجد لها رواجًا في المدينة، وهي: نشاء، أسلحة، أوانٍ زجاجيّة، ملابس محيّكة (جوارب، سراويل داخليّة وغيرها)، شموع، إطارات مذهّبة، مكانس، أعواد كبريت، أزرار، مطرّزات، شرائط أحذية، كرتون مقوّى لاستعماله كالجلد، شالات، ربطات عنق، قبّعات[٧]، جلود من مختلف النوعيّات (كبش، ماعز وعجل)، كونياك، أطعمة معلّبة، حبال، مشدّات نسائيّة، ملبّس، حلويّات بشكل عامّ، أقمشة للأثاث، أقمشة قطن وصوف وحرير، ساتان حريريّ، ساتينات، شرائط، ورق للكتابة، ورق خام، مغلّفات، حمضيّات، غزل القطن، أزهار اصطناعيّة، أجبان، فلّين، أمشاط، مشروبات روحيّة، أدوية ومنتجات كيماويّة، مظلات، مرايا، عطور، معجّنات، رصاص، أرزّ، بورسلين ومايوليكا، طلق، ألوان زيتيّة، دهانات، قرميد، أوانٍ منزليّة، حليّ، أحجبة، زنك.

٧) يذكر بافيا أنّ مواطنًا ألمانيًّا مقيمًا في بيروت يجني أرباحًا طائلة من بيع القبّعات الأوروبيّة، رغم ارتفاع أسعاره، كما يذكر مخزنًا فرنسيًّا يدعى Christophore يقول إنّه نسخة مصغّرة عن محلّات Bocconi الإيطاليّة المشهورة، يحقّق بدوره أرباحًا كبيرة.

ويطرح بافيا فكرة سعي إيطاليا لدى الباب العالي للحصول على امتيازات تتعلّق بتحسين البنية التحتيّة لمدن الشرق، أسوةً بالدول الأخرى. ويستعرض المنافسة بين فرنسا وإنكلترا، فيذكر أنّ الشركة البلجيكيّة-الفرنسيّة صاحبة مشروع طريق الشام بدأت في الفترة الأخيرة أعمال الحفر لإنشاء سكّة حديديّة بين دمشق وبيروت، وأنّ لفرنسا أيضًا حصةً في الشركة العثمانيّة لإنارة بيروت بالغاز، وأنّ شركات فرنسيّة فازت بالتزام بناء خطّ تراموي على البخار يصل طرابلس بصيدا عبر بيروت، وبالتزام المرفأ والجمارك الجديدة والأرصفة، في حين فازت شركة إنكليزيّة بالتزام جرّ مياه نهر الكلب إلى بيروت.

وما زال، وفق بافيا، بوسع إيطاليا اللحاق بركب الدول الأخرى والمشاركة في مشاريع كثيرة تنتظر من يطرحها. «ففي جميع الأماكن نهضة حياة اجتماعيّة جديدة، وخطوط نقل وشركات صناعيّة، فلا يظنّنّ أحدٌ أنّ كلّ شيء فاتنا». ويطرح على سبيل المثال شقّ الطرق العموميّة وقنوات مياه الشفة وإنشاء مصانع وإدخال صناعات جديدة، ويذكر أنّ الصناعة شبه الوحيدة التي تشهد رواجًا في تلك النواحي هي صناعة الحرير والحياكة، فيقول هنا إنّ عدد المغازل في مناطق [جبل] لبنان ارتفع من ٦٩ عام ١٨٧١ إلى ١٢٦ في أيّامه، أنتجت عام ١٨٩١ ثلاثة آلاف وخمسمائة طنّ من الشرانق، ما يوازي مبلغ ١٢ مليون فرنك.



بيروت مطلع القرن العشرين (مجموعة متحف نابو)

ويختم: «إذا قام الإيطاليّون بطلب بعض الامتيازات من الحكومة التركيّة سيحصلون عليها بسهولة أكثر منها بالنسبة للفرنسيّين، لأن تلك الحكومة ترى بعين الرضا ازدهار أحوال البلاد على يد الأجانب من جهة، لكنها من جهة أخرى بدأت ترتاب من الاتساع المفرط في دائرة نشاط فرنسا، وخاصّة في سوريا». سوى أن آمال بافيا لم تتحقّق، وزاد من عرقلتها قيام الأسطول الإيطاليّ بقصف بيروت عام ١٩١٢.